

صُلحُ الحُدَيْبِيَة



الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
الشؤون الفكرية والثقافية
١٤٣٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾

لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾

صَدَقَ اللهُ العَلِيُّ العَظِيم

سورة الفتح/ الآيتان: ١-٢

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين ولا سيما بقية الله في الأرضين عجل الله تعالى فرجه وجعلنا من أشياعه وأتباعه.

في اليوم الأول من شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة النبوية المباركة وقع صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ ومشركي مكة وكان لهذا الصلح الأثر الكبير في الأحداث التي حصلت بعده ،كانت نتيجتها انتصارات متتالية للمسلمين رغم كراهة بعضهم لهذا الصلح واعتباره (دنية) مما يدل على العناية الإلهية بالأحداث التي تخدم الدين وخاصة إذا علمنا أن الله سبحانه: (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[1].

ويدل أيضاً أن الرسول الأكرم ﷺ وخلفائه الأئمة عليهم السلام لا يفعلون شيئاً ولا يقفون موقفاً إلا وفق تلك العناية الإلهية وإن خفي على أغلب المسلمين أو كلهم وجه المصلحة في موقف المعصوم مما يوجب أن يكون المسلم منقاداً لله ولرسوله ﷺ وللأئمة عليهم السلام حتى في الأمور التي لا يدرك وجه المصلحة فيها وهذا الانقياد هو روح العبودية لله سبحانه بل هو الكاشف عن إيمان المؤمن الخالص وزيف من يدعي الإيمان كذباً وزوراً

(١) يونس/ آية ٦١.

وهذه الضابطة سارية في كل المواقف التي مضت-وخاصة صلح الإمام الحسن عليه السلام مع الفئة الباغية والذي اعترض عليه الكثير ولم يفهم معناه مثلهم في الكثرة رغم أنه حافظ على الإسلام العلوي من الإبادة- وكل المواقف القادمة أيضاً وهذا هو الدرس الكبير الذي نأخذه من هذا الصلح المبارك ونحن نعيش في ظل آخر الأوصياء عجل الله فرجه وقد لا نفهم حكمة الغيبة التي طالت وقد يعترض البعض على ذلك ويسأل ويلح بالأسئلة , فيجب أن نتهم عقولنا بالقصور عن إدراك الحكمة بدل الاعتقاد بأنه (لا حكمة) ونسلم لله ولوليه أن الخيرة فيما اختار الله سبحانه من تأخير وطول مدة رغم تكالب الدنيا على المؤمنين والغلبة الظاهرية لغيرهم وعلى المكلف وهو ينتظر ظهور إمامه أن يعمل بتكليفه الشرعي ويسلم توقيت الظهور لله سبحانه ويعتقد أن الخيرة فيما اختار الله.

نسأل الله سبحانه أن يرزقنا التسليم له ولرسوله وللأئمة.



الفتح المبين

يرتبط الفتح (ومعناه النصر) بأذهان عامة الناس بميدان الحرب فلا بد (حتى يتحقق الفتح) من معركة يلتحم فيها فريقان ويكثر فيها القتل وينتصر أحد الفريقين على الآخر حتى يكون فتحاً, إلا أن مفهوم القرآن للفتح غير ذلك تماماً فقد أطلق الفتح في أكثر من موضع وبدون هذه اللوازم من حرب وقتال وقتال , بل أطلق على فتح مكة الذي لم ترق فيه الدماء الكثيرة وهو يوم المرحمة كما ينادي أمير المؤمنين عليه السلام وقد أخبر القرآن بذلك قبل وقوعه مما يعد من الأخبار بالمغيبات وهي من معاجز القرآن الكريم وقد سميت تلك السورة بسورة النصر (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)[1].

ومعنى السورة المباركة (إذا أتم عليك أيها الرسول الكريم وعلى أصحابك النصر وصارت لكم الكلمة العليا وشاهدت الناس يدخلون في دين الإسلام جماعات ثم جماعات كثيرة بدون قتال يذكر إذا علمت ورأيت كل ذلك فداوم وواظب على تسبيح ربك وتنزيهه عن كل ما لا يليق به , شكراً له على نعمه وداوم أيضاً على طلب مغفرته لك وللمؤمنين)[2].

فالملاحظ هنا أنه لاقتال ولا إراقة دماء ولا سلاح ولا غير

(١) النصر/ آية ١-٣.
(٢) الوسيط ٥٣٢/١٥.



ذلك ومع ذلك يسميه القرآن فتح ونصر والملاحظة المهمة أن النصر منسوب إلى الله سبحانه فليس لأي سبب آخر مدخل في هذا النصر بل في كل نصر سابق أو لاحق (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[١]. أما كيف مواجهة هذا النصر وهو مظنة الغرور بالنفس فقد حدد المولى ذلك بتنزيهه سبحانه عن كل نقص والاعتراف بالتقصير أمامه سبحانه، من هنا نعرف أن (الفتح) هو غلبة الدين سواء جرى دم العدو أم لم يجر, أما إذا انتقلنا إلى سيد الشهداء عليه السلام وهو عدل القرآن فنجد أن الفتح هو الالتحاق بركب الشهداء الذين يحافظون بدمهم على الإسلام (فإن من لحق بي استشهد ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح)[٢].

وهذا لون آخر من (الفتح) رغم شهادة الفاتح فيكون في نفس الوقت شهيداً وفاتحاً وذلك بترسيخ دعائم الإسلام وإجهاض مخطط الأعداء بتقويض تلك الدعائم فيكون العدو مغلوباً وإن كان منتصراً عسكرياً وقد قطع رؤوس الفاتحين وسبى عيالهم وقد سأل إبراهيم بن طلحة الإمام زين العابدين عليه السلام بعد رجوعه من كربلاء عن الغالب فقال عليه السلام (إذا دخل وقت الصلاة فأذّن وأقم تعرف من الغالب)[٣].

(١) آل عمران/ آية ١٢٦.
(٢) كامل الزيارات/ ٧٦.
(٣) أمالي الطوسي/ ٦٦.

وهذا معنى الفتح الحسيني أن يعمل الفاتح إلى بقاء الصلاة وبقاء الإسلام وإن صُفي جسدياً.

والملاحظ على صلح الحديبية أنه يسمى بالفتح ويوصف ذلك الفتح بالمبين وهذا ما لم نره في فتح مكة وإن كان فتحاً ترتب عليه كثير مما ينفع الدين والمسلمين ومرة أخرى ينسب هذا الفتح إلى الله سبحانه ومنه نعرف أن العناية الإلهية لم تفارق مسيرة المسلمين في يوم ما, وقد ذكر الله سبحانه لهذا الفتح المبين آثار ونتائج كثيرة وأولها (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)[1].

وقد كثرت آراء المفسرين عن الذنوب المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وآله المتقدمة منها والمتأخرة وذهب البعض منهم إلى المعاصي قبل النبوة وبعدها أو قبل الفتح وبعده أو ما وقع وما لم يقع أو ما تقدم من ذنب آدم وحواء وما تأخر من ذنوب أمته وغيرها كثير مما لا يستند إلى ركن وثيق أما إذا جئنا للركن الوثيق حتى نستند عليه نجد الإمام الرضا عليه السلام يقول: (ما تقدم من ذنبك وما تأخر عند مشركي مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وتأخر لأن مشركي مكةأسلم بعضهم وخرج بعضهم من مكة ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم)[2].

ومن هذا النص نفهم أن الذنب المتقدم والمتأخر والمغفور ليس

(١) الفتح/ ٢.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام/ ٤/ ٢٠٣.

بين رسول الله ﷺ وربه لكنه بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش وبكلمة أخرى ما يعتبره مشركو مكة ذنباً والقرآن يذكر مثل ذلك في موسى كليم الله عليه السلام (ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون)[١].

فذنب موسى عليه السلام هنا ليس بينه وبين الله سبحانه بل بينه وبين بني إسرائيل فهم ومن وجهة نظرهم يعتبرونه ذنباً, أما عند الله فليس بذنب, فهذه الذنوب عبارة عن (التهم الباطلة التي وصمها المشركون - بزعمهم - بالنبي ﷺ في ما سبق وما لحق ولو لم يتحقق هذا النصر العظيم لكانوا يتصورون أن جميع هذه الذنوب قطعية غير أن هذا الانتصار الذي تحقق للنبي طوى جميع الأباطيل والتهم (المتقدمة) في حق النبي وما سيُتهم به في المستقبل في حال عدم انتصاره!.)[٢].

وهذا التفسير المأخوذ من أئمة الهدى عليهم السلام يتلاءم مع عصمة خاتم الأنبياء ﷺ وهذه العصمة قد دلَ عليها الدليل العقلي والنقلي بخلاف الآراء والتي تنسب لسيد الأنبياء عليهم السلام غير ذلك ولعل أخفها (ليغفر لك ربك جميع ما فرط منك من الهفوات ما يصح أن يسمى ذنباً بالنظر إلى مقامك الشريف وإن كان لا يسمى ذنباً بالنظر إلى سواك ومن ثم قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين)[٣].

---

(١) الشعراء/ ١٤.

(٢) الأمثل ٤٢٥/١٦.

(٣) تفسير المراغي ٨٤/٢٦.

والنتيجـة أن تلك الآراء وحتى أخفهن لا يفسـر العلاقة بين الفتح المبين وبين الغفران رغم أن النص القرآني ذكر من نتائج الفتح المبين ما يلي:-

١. غفران ذنب النبي ﷺ.
٢. إتمام النعمة الإلهية على رسول الله ﷺ.
٣. هداية الرسول الأكرم ﷺ الصراط المستقيم.
٤. نصرة رسول الله ﷺ نصراً عزيزاً.
٥. إنزال السكينة في قلوب المؤمنين وفائدتها زيادة إيمانهم.
٦. دخول المؤمنين والمؤمنات في جنة الخلود .
٧. عذاب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات.

الصلح

تبدأ قصة الصلح برؤيا رآها الرسول الأكرم ﷺ بأنه وأصحابه يدخلون بيت الله الحرام معتمرين في وقت كانت الكعبة الشريفة لا يزال يدير أمرها مشركي مكة الذين طالما حاربوا الإسلام ورسوله وحالفوا الدنيا في سبيل القضاء على هذه الدعوة الفتية فكانت زيارة بيت الله الحرام عند المسلمين حلم بعيد المنال لا يمكن الحصول عليه في هذا الظرف لكن تلك الرؤيا وهي جزء من الوحي جعلت ذلك الحلم قريب المنال

وقد حشـد الرسـول الأكرم ﷺ المسلمين في المدينة المنورة لتلك الرحلـة وقد أراد من الأعراب وهم سـكان البوادي حول المدينة المنـورة أن يرافقوه بتلك الرحلة إلا أنهم اعتذروا بأعذار كذبها القـرآن ,فخـرج مع الرسـول الأكـرم ﷺ ألف وأربعمائة مسـلم قاصديـن بيـت الله الحـرام ولم يكـن مـع هذا ا لجمـع الضخم إلا سـلاح المسـافر مما يدل على أن هذا ا لجمع لا يقصد حرباً وإن كان تأريخهـم القريـب هو تأريخ حرب مع قريش ومن جهة أخـرى فـإن قريش رأت أن دخول النبي ﷺ والمسـلمين (وإن كان للاعتمـار) يعتـبر عاراً عليها فتهيأت للحرب والممانعة وأرسـل إليهم الرسول الأكرم ﷺ رسلاً ليبين لهم أنهم لم يأتوا للحرب بـل جـاؤوا للعمـرة وأشـيع أن مبعـوث النـبي ﷺ قـد قتل مما اسـتدعى أن يبايـع المسـلمون رسـول الله بيعة الشـجرة (بيعة الرضوان) وأرسلت قريش مبعوثين الواحد تلو الآخر عندما تم الصلح علي يد سهيل بن عمرو بعد ان رفض البسملة ومحمد رسـول الله وأبدلهـا باسمك اللهم ومحمد بـن عبد الله ويمكن إجمال أهم النقاط التي اتفق عليها الطرفان بما يلي :-

١. الهدنـة بين الطرفين لمدة عشـر سـنوات فلا حرب في هذه المدة بين الطرفين.

٢. بقيـة النـاس غير الطرفين أحـرار في الانتماء إلى أي من الطرفين أحبوا.

٣. مـن أتـى إلى المدينـة من أهـل مكة بـدون أذن أهله رد إلى

قريش ومن جاء من كان مع الرسول ﷺ لم يرد.

٤. إن المسلمين في مكة لا يكرهون على ترك دينهم ولا يؤذون ولا يعيرون.

٥. قافلة المسلمين ترجع في عامهم هذا وترجع العام القادم ويخلى لهم البيت الحرام ثلاثة أيام.

وقد اعترض أحد أفراد المسلمين(١)، على الصلح أو بعض بنوده على الأقل واعتبر ذلك دنية يعطيها المسلم للكافر رغم أنه على حق وعدوه على باطل وقتلى المسلمين في ا لجنة وقتلى المشركين في النار وقد سأل عن كل هذا وأجابه الرسول ﷺ وسأل صاحبه بعد سؤال رسول الله كأنه لم يكتف بأجوبة الرسول الأكرم ﷺ وقد روى هو ذلك فقال: (قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبابكر أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بعذرِهِ فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال : بلى أفأخبرك أنك تأتيه

---

(١) أستوفى البحث من هذه المسألة السيد شرف الدين العاملي في (النص والاجتهاد)/ ص١٧٠ وما بعدها.

العـام؟ قلـت: لا، قـال: فإنك آتيه ومطـوف به، قـال (الرجل): فعملـت لذلـك أعمـالا فلمـا فـرغ من قضيـة الكتـاب قال ﷺ لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا، فوالله ما قام منهم أحد حتـى قال ذلك ثلاث مـرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سـلمة فذكـر لها مـا لقي من الناس فقالت أم سـلمة: يا نبي الله أتحـب ذلـك أخـرج ولا تكلم أحـداً منهم كلمـة حتى تنحر بدنـك وتدعـو حالقـاً فيحلقك، فخـرج فلم يكلم أحـداً منهم حتـى فعـل ذلك , نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قامـوا فنحروا، وجعـل بعضهم يحلق بعضاً حتـى كاد بعضهم يقتل بعضاً)[١].

وتتضح الصورة أكثر من نص آخر وهذا النص يذكر رجال من أصحاب رسول الله ﷺ بدل رجل واحد كما في النص المتقدم

(أقبـل رسـول الله ﷺ مـن الحديبيـة راجعـاً فقـال رجال من أصحـاب رسـول الله ﷺ مـا هذا بفتـح لقد صددنا عـن البيت وصد هدينا وعكف رسول الله ﷺ بالحديبية ورد رسول الله ﷺ

رجلين من المسلمين خرجا فبلـغ رسول الله ﷺ قول رجال من أصحابـه إن هـذا ليس بفتـح فقال رسـول الله ﷺ بئس الكلام هـذا أعظـم الفتح لقد رضي المشـركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسـألونكم القضية ويرغبون إليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا وقد أظفركم الله عز وجل عليهم وردكم سـالمين

(١) ١٣-انظر صحيح البخاري ج١ ص ٨١.

غانمـين مأجوريـن فهـذا أعظـم الفتـوح أنسـيتم يـوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسـيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسـفل منكم وإذ زاغت الأبصـار وبلغت القلـوب الحناجـر وتظنون بـالله الظنونا قال المسـلمون صدق الله ورسـوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله مـا فكرنـا فيما فكرت فيـه ولأنت أعلم بالله عـز وجل وبالأمور منـا. فأنـزل الله عـز وجل سـورة الفتح (إِنَّـا فَتَحْنَا لَـكَ فَتْحًا مُبِينًا)، إلى قوله تعالى (صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)، فبشر الله عز وجل نبيـه ﷺ بمغفرته وتمام نعمتـه وفي طاعة من أطاع ونفاق من نافـق)[1]، فبالإضافة إلى تبديـل رجل من الصحابة برجال من الصحابـة وهؤلاء المعترضون على الصلح والراغبون في القتال هم حسـب تذكير رسـول الله ﷺ الذين فروا يوم أحد ولم يلووا علـى أحد وكان الرسـول الأكـرم ﷺ يدعوهم بعـد أن تركوه إلا القلـة المؤمنـة الثابتة وهم نفسـهم الذين بلغت يـوم الأحزاب قلوبهم إلى الحناجر وزاغت أبصارهم وظنوا بالله الظن السيء وهـذه من المفارقـات العجيبة فإن تأريخهـم في ميادين القتال غير مشـرف وعندما يصل الأمـر إلى الصلح فإذا هم يرفضون الدنيـة ويريـدون القتـال وقد حكى القـرآن عن أمثـال هؤلاء الأدعيـاء وأكد وجودهم في المجتمع الإسـلامي فمن أولئك قوم كانوا يتحمسون للقتال قبل الإذن به أما بعد الإذن نرى بعضهم يبحثـون عن الأعذار بـل يعترضون على وجـوب القتال(أَلَمْ تَرَ

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٣٥.

إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ)[١].

ويصفهم أو غيرهم(وعلى كل حال فهم من المسلمين)أنهم يثبطون المؤمنين الآخرين على القتال (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ)[٢].

فهم في حالة الخوف كأنهم في حالة الاحتضار وعندما تنتهي حالة الخوف كانوا هم المتصدين لزعامة المسلمين وتقييم عمل الآخرين وكانوا كأنهم أبطال الوغى وفرسان الهيجاء وفي آخر النص السابق أن من نتائج الصلح تمييز طاعة المؤمن ونفاق المنافق وقد نصت سورة الفتح وهي التي تتحدث عن صلح الحديبية عن وجود المؤمنين والمنافقين وطائفة ثالثة.

مؤمنون ومنافقون

في مواضع كثيرة من القرآن الكريم مدح الله سبحانه المؤمنين وبشرهم با لجنان والغفران وإلى جنب ذلك اهتم القرآن بظاهرة

(١) النساء/ آية ٧٧.
(٢) الأحزاب/ آية ١٨- ١٩.



النفـاق والمنافقـين ومـا أعد الله لهم مـن خزي الدنيـا وعذاب الآخـرة وجعـل لـكلا الطرفين علامـات ومن أهـم ذلك موقف الطرفـين من الانقياد للرسـول الأكـرم ﷺ,فعلامة الإيمان هو الانقيـاد الكامـل (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَـجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[1].

فـلا يصـل الإنسـان إلى الإيمـان الكامـل حتى يحكم الرسـول الأكـرم ﷺ في كل مـا يختلـف فيـه مـع الآخرين أو مـا يلتبس عليه من الأحكام ويقبلون بحكم الرسـول الأكرم ﷺ بلا ضيق ولا تـبرم وينقادوا له انقياد الراضي بالحكم ظاهراً وباطناً أما عـدم الانقياد فهـي علامة النفاق و بتعبير القـرآن الصد (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْـكَ صُدُودًا)[2]. وسـورة الفتح المباركة وهـي تتحدث عن صلح الحديبيـة تذكر هذين الصنفين أيضاوقد مر بنا أن أحد نتائج هـذا الصلح هو دخول أهـل الإيمان ا لجنان وعذاب أهل النفاق والشرك فقد قال عز من قائل (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْـدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۞ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْـرِكِينَ وَالْمُشْـرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَـاءَتْ مَصِيرًا)[3]، والملاحظ على

(١) النساء/ آية ٦٥.
(٢) النساء/ آية ٦١.
(٣) الفتح/ آية ٥-٦.

الآية الثانية أنها جمعت بين أهل النفاق والشرك وقدمت أهل النفاق على أهل الشرك لأن الخطر من هؤلاء أشد وأعظم خطراً من أولئك لذلك يبدأ باستحقاقهم للعذاب قبل استحقاق أهل الشرك فلا يمكن قبول القول بأن الله سبحانه رضى عن كل المسلمين وهم ١٤٠٠ الذين بايعوا تحت الشجرة استنادا للآية الكريمة (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)[١]، فالرضا الإلهي والبشارة بالفتح القريب هنا مختصةبالمؤمنين وقد عرفنا إن ذلك التجمع الإسلامي لم يكن يخلو من المنافقين ومن هذا يتبين أن الرضا الإلهي يشمل المؤمنين فقط دون غيرهم وكذلك إنزال السكينة لخصوص المؤمنين (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)[٢]، ومرة أخرى ينسب إنزال السكينة على المؤمنين كما إن الفتح المبين منسوب لله سبحانه ومرة أخرى يخص المؤمنين بإنزال السكينة هم فقط ومما يؤكد هذا المعنى إن القرآن عندما يتحدث عن بيعة النبي صلى الله عليه وآله وأهميتها وإن مبايع النبي مبايع لله سبحانه فلم يذكر هنا صفة الإيمان الخاصة بل ذكر (الذين يبايعونك) وهو شامل للمؤمن ولغيره ولذلك لم يجعل القرآن القيمة في مجرد البيعة بل القيمة كل القيمة هي في الالتزام بمضمون البيعة فلذلك يفرق القرآن بين الذي

(١) الفتح / آية ١٨.
(٢) الفتح / آية ٤.

يوفي بالبيعة وبين الناكث (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)[١]، فأنت ترى إن الأجر العظيم لا يترتب على مجرد البيعة بل يترتب بالوفاء بالبيعة فلو عرفنا أن البيعة كانت على الموت أو على عدم الفرار من الزحف في ساحات القتال لنصرة الرسول الأكرم ﷺ وقد سجل القرآن فرار بعض المسلمين قبل هذه البيعة وبعدها ويهمنا هنا الفرار بعد البيعة مما يدل على عدم الالتزام والوفاء بعد البيعة فهذا أحد المبايعين وهو الذي رفض الدنية بزعمه يقود جيشاً لفتح خيبر فيرجع هو وأصحابه (يجبنوه ويجبنهم)[٢]، رغم البشارة بهذا الفتح لكنه للمؤمنين لا لغيرهم والقرآن يشهد بالفرار الجماعي لجماعة المسلمين وفي أواسطهم المبايعين تحت الشجرة في غزوة حنين (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)[٣]، وقد أسند ابن كثير هذه المقولة لصاحبها وذكر بعدها (فانهزموا فكان أول من انهزم بنو سليم ثم أهل مكة ثم بقية الناس)[٤]، وقد حدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب القلة التي ثبتت (وبقي معهم

(١) الفتح / آية ١٠.
(٢) المستدرك ٣/٣٨.
(٣) التوبة/ آية ٢٥.
(٤) السيرة النبوية ٣/٦١١.

نفر من المجاهدين وأهل بيته)[1]. وقد ذكر ابن هشام في سيرته أسماء الثابتين فإذا هم عشرة والحاصل إن البيعة لم يلتزم بها كثير من المبايعين وقد مر بنا أن الأجر العظيم لا يترتب على البيعة بل على الوفاء بالبيعة وقد مر أيضاً أن الرضوان خاص بالمؤمنين فقط ونضيف هنا إن الرضا مقيد بقيد آخر وهو (إذا يبايعونك) يعني أن الرضا الإلهي الخاص بالمؤمنين لا مطلقا ليس في كل حالاتهم لكن بحال البيعة وتبقى أعمالهم السابقة واللاحقة هي مرضية لله سبحانه أم لا تجيب الآية عن ذلك بل هو متروك لتأريخ هؤلاء المؤمنين أنهم هل بقوا على البيعة أم نكثوها والقرآن يخبرنا إن بعض المؤمنين (فقط) هو من يصدق بيعته لله (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ)[2]، وقد مر بنا سابقا أن استحقاق نزول السكينة بالمؤمنين ففي كل مورد يكون الرسول ﷺ في جمع من أصحابه فالسكينة تنزل على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين ممن حوله سواء في صلح الحديبية كما تتحدث عنه سورة الفتح في آيتين وكما في سورة التوبة عند الحديث عن غزوة حنين وحادثة الغار عندما كان النبي ﷺ مع فرد واحد من المسلمين ونزلت السكينة عليه ﷺ.

الأعراب

هناك فئة ثالثة إلى جنب تلك الفئتين وهي فئة الأعراب

(١) ؟؟؟ سيرة الرسول ﷺ/٢١٤.
(٢) الأحزاب/ آية ٢٣.

الذين دعاهم الرسول الأكرم ﷺ فاعتذروا بالانشغال بالأموال والأهلون وقد كذبهم القرآن وذكر السبب الحقيقي لعدم خروجهم مع النبي ﷺ وهو ظنهم إن النبي والمؤمنين لا يرجعون من سفرتهم هذه بل سيبادون عند لقاء قريش (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۞ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا)[1]، كان عندما يوعد المؤمنين بالفتح القريب والمغانم الكثيرة يحاول هؤلاء المتخاذلون أن يكونوا شركاء في الفتح والغنيمة وإذا أخبروا أن الفتح والغنيمة لأهل الحديبية فيتهمونهم بالحسد (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلا)[2]، ثم دعوا لإثبات صدق نواياهم إلى حرب قوم أصحاب قوة ومراس في الحرب في هوازن وثقيف فإن استجابوا فقد استحقوا الأجر العظيم وإن أعرضوا عن إطاعة الرسول ﷺ كما أعرضوا عنه في الحديبية فلهم عذاب أليم ومن هذا كله يتبين أن الصحبة في ذاتها ليست فيها كرامة بل لا بد مع الصحبة متابعته وطاعته فلذلك

(١) الفتح/ آية ١١-١٢.
(٢) الفتح /آية ١٥.

أكدت سورة الفتح المباركة على أن الله سبحانه أرسل رسوله ﷺ شاهداً على الأمة في طاعتهم ومعصيتهم واستقامتهم ورفضهم ويبشر المطيعين وينذر العاصين وحكمة هذا الإرسال أن يؤمن المرسل إليهم بالله ورسوله ونتيجة هذه الرسالة أن ينقسم الناس إلى مؤمنين ومنافقين ومشركين وقد مربنا استحقاق الأصناف الثلاثة وقد ضمت السورة المباركة بأن الأجر العظيم ينتظر من يجمع بين الإيمان والعمل الصا لح فبعد أن ذكر الصفات العامة لمن (مع الرسول) قال: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[1].

فتوح أخرى

نلمس في سورة الفتح المباركة بل في كل القرآن التدخل الإلهي المباشر في سير الأحداث بل قل العناية الإلهية بالنبي ﷺ والمؤمنين معه فنرى من الآية الأولى أن الفتح المبين منسوب إليه سبحانه وكذلك غفران الذنب وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم ونصر الرسول ﷺ نصراً عزيزاً وإنزال السكينة على المؤمنين وإدخالهم ا لجنان وعذاب أهل النفاق والشرك وإرسال الرسول ﷺ ومبايعة المؤمنين للرسول ﷺ مبايعة لله سبحانه ورضاه عن المؤمنين وتبشيرهم بـ (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا

(١) الفتح/ آية٢٩.

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ)[1]، وهذا الفتح القريب اختلف فيه والأقرب أن يكون هو فتح خيبر لأنه (لم يكن فتح أقرب منه ولأن المسلمين قد أصابوا من فتح خيبر غنائم كثيرة وقد أشار سبحانه بعد ذلك إلى تلك الغنائم فقال ومغانم كثيرة يأخذونها، أي وأثابكم غنائم كثيرة تأخذونها من خيبر وكان الله تعالى وما زال (عزيزاً) أي غالباً (حكيماً) في كل أفعاله وأحكامه وعدكم الله غنائم كثيرة تأخذونها أيها المؤمنون من أعدائكم في مستقبل أيامكم)[2]، وكان صلح الحديبية مفتاحاً لهذا الفتح ولكل فتح جاء بعده سواء كان فتح مكة أو حنين أو غيرها لأن هذا الصلح:

١. قد أوضح لأهل مكة وغيرهم أن النبي ﷺ ليس سفاكاً للدماء بل طالب صلح وحقن دماء ويحترم الكعبة الشريفة مما أوجب جذب بعض القلوب للإسلام.

٢. الاعتراف الرسمي من قبل قريش بجماعة المسلمين مما أدى إلى تثبيت موقعهم في ا لجزيرة.

٣. إعطاء فرصة للمسلمين للاتصال بالآخرين مما أدى إلى طرح الإسلام ونشره.

٤. اتصال الرسول الأكرم ﷺ بملوك العالم البارزين.

٥. رفع معنويات المسلمين إذا قبلت قريش ا لجبارة بالصلح معها رغم أنهم قلة لا يحملون إلا سلاح المسافر.

٦. الحفاظ على المسلمين المستترين في مكة.

(١) الفتح/ آية ١٨-٢٠.
(٢) الوسيط ١٣/٢٧٧.

الفتح الأخير

لقد كانت هذه الأسباب الآنفة الذكر عزاً للإسلام ولم تكن في أي حال من الأحوال (دنية) حسب رأي من اعترض وكان من وظيفته كمسلم أن لا يعترض بل يسلم الأمر لله ولرسوله حتى يفتح هذا الفتح المبين فتوحات كثيرة وآخرها نصت عليه سورة الفتح المباركة وهو انتشار الإسلام الكبير على كل الديانات الأخرى وظهورها عليه (هو الذي ارسل رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)[١]، وهذا هو الفتح الأخير الذي ينتظره المسلمون بإظهار دينهم على كل الأديان وقد ذكر الآلوسي رأياً نسبه إلى (قيل) (إن تمام هذا الإعلاء عند نزول عيسى عليه السلام وخروج المهدي رضي الله تعالى عنه حيث لا يبقى حينئذ دين سوى الإسلام)[٢] ، ويأسف الإنسان المسلم أن يفسر القرآن بـ (قيل) ويأسف أيضاً أن يكون زمان ظهور الإسلام على الدين كله غير مشخص أو معين فيبقى معنى الآية أن هناك وعداً إلهياً بنصرة الإسلام وقد تكرر هذا الوعد الإلهي ثلاث مرات في القرآن الكريم, مرة في سورة التوبة آية ٣٣ وآخر سورة الصف وفي سورة الفتح. ومع هذا الاهتمام لا يعرف متىَ ؟ أو كيف؟ أو على يد من ؟كلها تبقى مجهولة والوصول إلى هذه النتيجة سببه الإعراض عن أئمة أهل البيت عليهم السلام , أما بالرجوع إليهم فنجد أن الإمام الصادق عليه السلام يقول عن الآية (والله ما

(١) الفتح/ آية٢٨.
(٢) روح المعاني ٦٣/٢٧٦.

نـزل تأويلها بعد , ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم عجل الله فرجه فإذا خـرج القائم عجل الله فرجه لم يبق كافر بالله العظيم ولا مشـرك بالإمام إلا كره خروجه حتى أن لو كان كافراً أو مشـركاً في بطن صخرة لقالت يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله)[1]،

هـذا الأمـل الذي يعيش في ظلاله المؤمنـون وقد تطول المدة على بعضهم ويسـتعجل الظهور وهذا غير أن يتمنى الإنسـان أن يتشرف باللقاء فهذا أمر ممدوح أما الاستعجال وقد يؤدي إلى الاعـتراض علـى طـول مدة الغيبة بسـبب تكالـب الأعداء على المؤمنـين وإذاقتهم أنواع العذاب فهذا منهي عنه قال أمير المؤمنين عليه السلام (ولا تستعجلوا بما ما لم يعجله الله لكم فأنه من مـات منكم على فراشـه وهـوَ على معرفة حق ربه وحق رسـوله وأهل بيته مات شـهيداً)[2] ، نعم علـى الموالي أن يدعو بتعجيل الفرج ويهيئ نفسـه لاسـتقبال إمامه (عج) وأهـم فقرات ذلك التهيؤ هوَ أداء الوظائف الشـرعية وقـد وردت الروايات الكثيرة على ثواب المنتظرين وإن لم يدركوا الإمام (عج).

نسأل الله أن يجعلنا من المنتظرين الصادقين بشفاعة محمد وآله وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

(١) كمال الدين ٦٧١.
(٢) . نهج البلاغة ج٢ ص ١٥٦.

الفهرس

